

التفكير العلمي: من النقد إلى الإبداع.. من النظر إلى التطبيق العملي

د. سامية عبد الرحمن(*)

مقدمة :

إن الإنسان المعاصر يشعر أنه اليوم أكثر ارتباطاً بالعلم والتقدم العلمي والتكنولوجي أكثر من أي وقت مضى. فالتفكير العلمي، والثقافة العلمية هما حجر الزاوية في تقدم أي أمة وبناء حضارتها، ومن ثم لا يستطيع الإنسان أن يتخلى عن الحضارة التي تركز على العلم، بل يطالب بالمزيد منها حتى لا يتردد إلى الوراء. ولكن لا خير في علم لا ينتفع به الإنسان ولا تستفيد منه البشرية.

وإذا كان العلم النظري أو التفكير العلمي لم يظهر إلا مع التقدم الحضاري، فإن العلم العملي قد سبقه بوقت طويل. ولكن وظيفة العلم اليوم تقتضي الجمع بين النظر والتطبيق، وإن كان الأصل أن تقتصر مهمة العالم على وضع النظرية أو القانون العلمي، ويترك للمخترع أو المبدع مهمة تطبيق النظرية في مجال العمل. وكثيراً ما يسيء البعض استغلال النظرية، فيعدل من تسخيرها لخدمة البشرية وضالح أبنائها إلى تدمير المدنية والقضاء على آثارها. ونحن نعيش اليوم في عصر يشق اسمه من دلالات العلم ومفرداته، عصر المعلوماتية، والعولمة، عصر الذرة، عصر الكمبيوتر، غزو الفضاء... عصر التفاعل وتعظيم العقل البشري، في هذا العصر تصبح كفاءة الإنسان في حل إشكاليات الحياة المتجددة، وفي طرح إشكاليات جديدة محكاً أساسياً يحدد

(*) أستاذ الفلسفة المعاصرة / كلية البنات / جامعة عين شمس

موقفه في هذا العالم. ومن هنا تأتي معاودة الحديث عن أهمية التفكير العلمي في عصرنا الراهن ... عصر الإصلاح والتحديث، فهذه القضية تعد من أهم وأخطر القضايا المطروحة، ولعل أهميتها وخطرها ناتج من ارتباطها بواقع مجتمعنا في شتى مجالاته. حاجتنا إلى التفكير العلمي المبني على أسس نقدية تسمح بتعدد الرؤى واحترام الآخر، وتمهد الطريق للإبداع.. تعد مطلباً إنسانياً وأساسياً.

تبدأ هذه الدراسة بتحديد دلالات الألفاظ الأساسية في العنوان... التفكير العلمي... النقد، الإبداع، ومدى مشروعية العلاقة بين النقد والإبداع. وتتضمن هذه المحاولة ثلاثة محاور :

- (١) حول أهمية التفكير العلمي في حياتنا المعاصرة والفارق بين التفكير العلمي أو المعرفة العلمية والمعرفة قبل العلمية (المعرفة الدارجة أو العامة)، وأهم شروط التفكير العلمي.
 - (٢) طريقنا إلى تفكير علمي نقدي، المشكلة والحل : المعوقات وآليات المواجهة.
 - (٣) أما المحور الثالث فيطرح تساؤل : التفكير العلمي في العالم المعاصر : إلى أين ؟؟؟ أو من الذي سيحكم المستقبل : القوة العلمية للتكنولوجية في غيبة الأخلاق؟ أم إرادة التغيير في ظل القيم الأخلاقية والإنسانية ؟
- من خلال الإجابة على هذا التساؤل نحاول أن نؤكد على أهمية التوازن بين العلم والأخلاق أو ما نسميه بأخلاقية العلم. ذلك أن العلم الصحيح هو الذي يسخر من أجل خدمة البشرية ويهدف إلى سعادة ورخاء وسلام العالم لا إلى تكثيره.

* التفكير العلمي^(١):

التفكير العلمي هو الحقيقة الأساسية في عالم اليوم، فما هو ؟؟ التفكير هو إعمال العقل في مشكلة ما للتوصل إلى حلها، فهو أعلى شكل من أشكال النشاط العقلي لدى الإنسان، وهو العملية التي ينظم بها العقل خبراته بطريقة جديدة.

بحر تفكر حليم يعرصد مشكلة فحاول إيجاد حل لها وكذلك نقول عن العالم، والمخترع، والفنان والشاعر، والمؤلف، وغيرهم. حينما يستغرقون في أعمالهم العلمية أو الابتكارية إنهم يفكرون. ورغبة الإنسان في السيطرة على الطبيعة وفك رموزها لهو أكبر محرض على التفكير.

وكلمة logic في اللغة الإنجليزية مشتقة من الكلمة اليونانية logos وهي تعني العقل أو الفكر الفكر إذن مرتبط بالعقل. وإذا كان الأمر كذلك فقد دعانا القراء الكريم والسنة النبوية إلى التفكير السليم، وإعلاء قيمة العقل ومكانته، وضرورة استخدامه وعدم إهماله. التفكير العلمي ليس تفكير العلماء وحدهم، بل ما نعيشه هنا هو المعنى الواسع والشامل لهذه الكلمة، هو النشاط الذي نبذله حين ممارس أعمالنا الحياتية، وهو التفكير المنظم الذي يمكن استخدامه في شئون الحياة المعتادة أو في علاقتنا مع الناس، ومع ظواهر العالم المحيط بنا. ومن هنا فالعالم والمفكر والفيلسوف والفنان، والأديب... كل يفكر تفكيراً علمياً منظماً، كل في مجال تخصصه. وكلما ارتفعت ثقافة المرء تعلم كيف يفكر تفكيراً علمياً منظماً، وأحسن استخدام عقله في حل المشكلات، واضعاً في الاعتبار أن لكل مشكلة ظروفها ومنطقها اللذان يساعدان على فهمها وحلها. والتفكير العلمي عكس الخرافة التي تنكر العلم ومناهجه ولا تؤدي مقدماتها إلى نتائجها.

ويرى ديوي صاحب المذهب البراجماتي أن الأفكار أدوات أو وسائل لتوجيه السلوك وضبطه. الفكرة تتضمن مشروع للعمل، خطة لحل إشكال أو مأزق وهي هنا أداة للعمل، لذلك فتحقيق الفكرة لا يكون في الخلاء، إنما يرتبط بالواقع، وما يعنيه ديوي هنا هو ربط الفكرة بنتائجها العملية أو ممارستها، إذ يستحيل فصل الأفكار النظرية عن تطبيقها العملي لأن الفكر والعمل طرفان لخيطة واحد

والتعليل الخرافي هو ألد أعداء التفكير العلمي. وما نغنيه هنا بكلمة "خرافة" أنها اعتقاد اجتماعي خاطئ، فيما يتصل بأسباب الأحداث وتفسير الظواهر، وهي تعتمد على رابطة عرضية بين شيئين قد يكون اقتران وقوعهما حدث بمحض الصدفة. وإذا كان التفكير هو أعمال العقل، فكثيراً ما نلاحظ في حياتنا الجارية مقاومة البشر للعقل وأحكامه وتغليب العاطفة والوجدان في سلوكهم وأحكامهم، من هنا تأتي حاجتنا إلى النقد أو التفكير الناقد على نحو ما سنرى.

* معنى النقد^(٢):

ليس أخطر على الحياة الفكرية لأي مجتمع من أن تكون الثقافة التي يحيا عليها أفراد ذلك المجتمع مجرد مجموعة من "الأفكار الجاهزة" أو "الأطر" العقلية الجامدة التي يسلم بها الناس تسليماً دون تساؤل أو وعي إلى ما تتطلب عليه من معانٍ أو إلى ما تستند إليه من فروض.

والنقد: في تعريفه العام تقييم evaluation أي إظهار ما في الشيء من عيوب ومحاسن، سلبيات وإيجابيات. هو محاولة لتغيير الواقع وعدم الاكتفاء بمجرد تفسيره أو تبريره. وبذلك يمثل النقد إعادة البناء، التجديد، إرادة التغيير، بمعنى أن النتائج التي نصل إليها بشأن أمور الواقع ليست إلا فروضاً قابلة للتعديل في ضوء تجارب المستقبل. والتغيير يعني العقل وهو في حالة فعل أي العقل وله القدرة على الوعي بذاته والوعي بما حوله. وبهذا المعنى فإن النقد يمثل ظاهرة صحية للفكر الجاد، والفكر البناء. والناقد هو من تتوافر لديه القدرة على الفحص والعمق دون تحيز، أو هو ذلك الإنسان الذي لا يقبل القول على علته، والذي لا يصدق إلا بوعي. وصاحب الفكر النقدي هو المجدد، المصحح بفكره الأخطاء الشائعة في مجتمعه، إنه الطبيب الذي يشخص الداء ويقدم الدواء لمن أراد الشفاء.

والمنهج النقدي هو المنهج الذي يناقش ويحاور، يتقن ويختلف، يؤيد ويعارض، ومن ثم فالاستقلال في الرأي، وحرية الفكر، والحوار بين أكفاء،

وعدم التأثير بأيدولوجيات معينة... من أهم الأسس الضرورية في اتخاذ أي موقف نقدي. **النقد** إذن هو إعلاء كلمة العقل. فالعقل قوة خلاقية مبدعة في ميدان النظر.. وإذا كان العقل أعدل الأشياء قسمة بين البشر، وهو أهم ما يميز الإنسان، ففارق كبير بين أن يمتلك الإنسان العقل ويوصف به، وبين أن يمتلكه ويوظفه التوظيف الأمثل، حيث يصبح سبيلنا في القضاء على معوقات مسيرتنا الحضارية، وطوق نجاتنا من أسر اللامعقول، والوقوع فريسة للأساطير والخرافات. على هذا النحو يعد النقد ملازماً للتفكير الجاد وضرورة من ضروراته، وللنقد حضوره الفاعل في كل المجالات وله دوره الإصلاحي في الارتقاء بها خاصة إذا كان نقداً موضوعياً هادفاً بناءاً.

هذا عن النقد، فماذا عن الإبداع (٣)؟؟؟

الغاية من أي فكر لا تقف عن حد كشف الأخطاء، بل تتجاوز ذلك إلى بناء العقول وتنمية الأذهان، وإيقاظ الوعي والقدرة الإبداعية. لا يوجد تعريف أو إطار عام لمفهوم الإبداع، ولكن يمكن القول بأن الإبداع هو الجانب الإيجابي **لِلنقد**، لأن الإقتصار على كلمة "لا" أو السلب فقد أمر مستحيل. والإبداع هو القدرة على مجاوزة الواقع من أجل تغييره، وهذه المجاوزة ليست ممكنة من غير قدرة العقل الإنساني على تكوين علاقات جديدة تتجاوز العلاقات القائمة وتحديث تغييراً في العالم، هذه العلاقات الجديدة لا تتم بغير عقل **ناقد** لعلاقات قائمة. أي إنه من غير البحث عن الجديد، ليس ثمة مبرر للنقد ولا حاجة إلى إبداع. ثمة علاقة تكاملية بين النقد من جهة والإبداع من جهة أخرى، لأن تكوين علاقات جديدة، وابتكار طرقاً جديدة يستلزم نقد العلاقة القائمة، ونقدها ليس ممكناً إلا إذا كان الإنسان على وعي بأن هذه العلاقات القائمة تدخل في علاقة تناقض مع الواقع المتطور.

والإبداع ظاهرة إنسانية طبيعية، يمكن تنميتها، ومن ثم فهو لا يقتصر على الموهوبين فقط أو أنه يرتبط بالغموض والعبقرية أو الجنون وما إلى ذلك من تعريفات خاطئة تعوق القدرة الإبداعية. وبذلك يصبح التحدي الحقيقي أمام

الإنسان أن يفهم ويوظف ما لديه من إمكانيات إبداعية، لأن أي تقدم في مجال العلوم الإنسانية لابد وأن يقوم على التفرد والذاتية والنقد والتفكير الحر المبدع^(٥).

* خصائص التفكير العلمي^(٤):

المعرفة العلمية، المعرفة قبل العلمية (العامية الدارجة) :

تبدو المعرفة العامية في صورة معلومات متناثرة استقاها أصحابها من مشاهداتهم وخبراتهم الفردية، واستعانوا بها على ما يصادفهم في حياتهم من أمور. إن الأشياء تبدو للعامي خليطاً من جزئيات لا تقوم بينها روابط، أو تقوم بينها علاقات وهمية تجعل المعرفة خرافية، أو تكون الرابطة قائمة بين ظاهرة محسوسة، وظاهرة غيبية، ثم إن هذه المعرفة العامية تقف عند حد الجزئيات ولا ترتفع إلى التعميم، ومن ثم تفقد الدقة التي ينشدها العلم وتلتبسها الفلسفة. في هذا النوع من المعرفة تبدو الأحداث ممكنة وليست ضرورية بمعنى أن الحوادث تتابع من غير علة تحدثها، فوجودها محض اتفاق ومصادفة، وليس أمراً ضرورياً محتوماً كنتيجة لوجود علة توجب وجودها، وقد يتوهم أصحاب هذه المعرفة أن للظواهر عللاً غيبية لا يمكن التثبت منها بالتجربة، فكسوف الشمس أو خسوف القمر أو نحوه من ظواهر طبيعية قد يرتد في نظر العامة إلى الأرواح الشريرة أو غيرها من علل وهمية غيبية لا سبيل إلى التحقق منها عن طريق الملاحظة الحسية.

ويتمثل هذا النوع من المعرفة في صورة آراء خاطئة وأحكام فردية سريعة يتأثر فيها أصحابها بأفكار سابقة تلقوها من غيرهم فسلموا بها دون بحث أو تمحيص، ومن ثم اتصفت هذه المعرفة بأنها ذاتية وليست موضوعية، جزئية وليست كلية، ممكنة وليست ضرورية، وعكس هذا تماماً تكون المعرفة العلمية. في هذا النوع من المعرفة يكون التفكير تخيلي أو غير موجه، بمعنى إنه يحدث

(٥) نمود إلى تفصيل هذا في جزء لا حق عند الحديث عن معوقات الإبداع والعوامل المشجعة له، دور الإبداع

نتيجة تداعي الأفكار تلقائياً دون وجود هدف محدد يتجه إليه التفكير، كما أن هذا النوع مجرد تعبير عن رغبات أو حاجات، ولا يعتمد إلا على علاقات بسيطة غير ضرورية، فهو أقرب إلى التخيل منه إلى التفكير أو الاستدلال العقلي الموجه. ولنقف قليلاً عند خصائص التفكير العلمي، والتواصل بين العلم والفلسفة...

إن العلم وليد الدهشة - فيما قال أفلاطون وأرسطو من قبل - ولكن هذه الدهشة يجب أن تقترن بحب الإطلاع والرغبة في التماس المعرفة لذاتها، وعلى العالم منذ البداية ألا يتأثر بآراء مسبقة في موضوع بحثه، بمعنى أن يطهر عقله من كل ما يحويه من معلومات حول موضوعه. وهنا يشبه العالم الفيلسوف، كلاهما يحرر عقله من ضغط الأفكار الخاطئة التي تستبد بتفكيره وتغرق انطلاق عقله. ولكن هذه القاعدة لا تؤخذ على إطلاقها. فقد تكون المعلومات السابقة عوامل مساعدة للباحث لأن اتساع معارفه تساعد على كشف المجهول من الحقائق.

مجمل القول أن الشك المنهجي أو النقد لابد وأن يكون تمهيداً لكل بحث علمي أو فلسفي. وإذا جاز للفيلسوف أن يجعل العقل مصدر المعرفة ومعيارها، فإن العالم لا يستمد حقائقه إلا من التجربة وحدها، لكن هذا لا يمنع من الأخذ بشهادة الغير - كمتهم لملاحظات العالم وتجاربه - كالمجلات العلمية مثلاً. ولكن منهج البحث العلمي يحذر الباحث من الأخذ بحقيقة يتلقاها من غيره، إلا إذا قام بتمحيصها بنفسه ما أمكن ذلك، فالتسرع والتعميم في إصدار الأحكام دون تبرير أو التحيز إلى رأي دون آخر ليس من صفات البحث العلمي. على الباحث أن يلتزم الموضوعية، والنزاهة، وهنا يختلف العلم عن الفن الذي يعتمد على الذاتية. (الفن أنا والعلم نحن فيما يقول كلود برنار).

الباحث هنا يلتزم الحيادة ويستبعد الاعتبارات الشخصية والأيدولوجيات السابقة، وغير هذا مما يبعده عن هدفه في كشف الحقيقة. التحيز يلغي التفكير الحر، والقدرة على النقد ويشجع الخضوع للطاعة دون وعي. فالعالم لا يخضع

بحته لمصلحة ذاتية أو شهرة فردية أو عقيدة دينية أو فكرة قومية إلى الحد الذي تنتفي فيه أمانته في تقصي الحقيقة.

وفي هذا يتفق العالم والفيلسوف في التجرد من العاطفة والانفعال، والفكر الهادئ الممتز الذي يرتفع فوق الحق والكرهية. وإذا كان العلم يتصف بدقة الملاحظة العلمية والروح النقدية العقلية، فإن هذا لا ينفي حاجته للخيال، لأن العلم لا يستقيم بغير فروض تفسر الظواهر التي يدرسها، وهذه تتطلب خيلاً واسع المدى، ولكنه هنا يختلف عن خيال الفنان، لأن خيال العالم وسيلة إلى كشف الحقيقة دون تجاوز الواقع. الحاجة إلى الثقافة الواسعة التي تتجاوز التخصص العلمي المحدود. يوصي كلود برنار أن من يعد نفسه لأن يكون عالماً بأن يتزود بثقافة واسعة في الفلسفة والفن معاً. فالفلسفة تضيء على التفكير العلمي حركة تبحث فيه الحياة وتسمو به، والفنان يستمد من العلم أسساً أرسخ، والعالم يستلهم من الفن حدساً أصدق. فالتفكير العلمي هنا لا يصدق على العلوم الطبيعية وحدها، أو التجريبية، بل يندرج تحته العلوم الرياضية، والإنسانية (أي الاجتماعية)، والعلوم المعيارية التي تبحث في القيم (الحق، الخير، الجمال).

فخصائص التفكير العلمي كما أوضحناها تتفق مع المعرفة الفلسفية في عدم استقاء الحقائق من سلطة ما دينية، أو سياسية، عرفية، اجتماعية أو غير ذلك. كلاهما يبدأ بالشك وتطهير العقل من الأفكار السابقة رغبة في التوصل إلى الحقيقة، يبدو هذا واضحاً في الجانب السلبي من منهج "بيكون" التجريبي، القاعدة الأولى من قواعد المنهج عند "نيكارت"***.

فالروح النقدية، حرية الفكر، والتسامح، التواضع، عدم التعصب، والتريث في إصدار الأحكام، إعادة النظر، التحرر من كل سلطة، وعدم قبول إلا ما نشأ عن تفكير سليم... لهي من أهم صفات الفيلسوف والعالم على السواء. وبغير هذه الحرية الفكرية، والروح النقدية لا تعيش فلسفة ولا يتقدم علم.

* طريقنا إلى تفكير نقدي^(٤) ... المشكلة والحل :

- معوقات التفكير النقدي :

النقد يتنافى مع النقل والتقليد سواء أكان نقلاً عن الماضي أو تقليداً للغرب. وإذا وضعنا في اعتبارنا أن كل عصر من العصور لا يخلو من الطيب والرديء، الحسن والقيبح، فإنه ما من زمن من الأزمان السابقة كان منزهاً عن العيوب حتى يصح أن يقال أنه نموذج للكمال البشري. ويترتب على هذا الفهم - الذي لا ينفصل عن مبدأ التطور - الوعي بأن كل لحظة من لحظات هذا التسلسل الزمني تنطوي على عناصر متعارضة وذلك على نحو يتيح للوعي تصوراً نقدياً، كما يعني ذلك أن التمسك بالماضي فقط وهم من الأوهام، لأن الماضي مهما بلغ من صدقه، فإن الواقع - الحاضر - سيتخطاه لا محالة. والإيمان بالعقل يعني الإيمان بالإنسان وقدراته الخلاقة على صياغة المستقبل.

"ليس ثمة مصير قد تحدد سلفاً بحيث لا يكون لدينا أمل في أن نرى بعض المتناقضات تنثر في داخل معطياته... فيما يقول جارودي".

أما التقليد فهو إلغاء للعقل لأنه استجابة عاجزة تؤكد غياب الوعي وترسخ عبودية الأنا التي تقبل قول الغير دون دليل أو مناقشة. وإذا كان تأكيد معنى العقل هو الوجه الآخر لتأكيد القدرة الإبداعية لدى الفكر، وتحريره من أسر التقليد، فإن تحرير عقول الأفراد من أوهام التقليد هو تحرير لثقافة الأمة كلها.

لذلك يمكن القول أن تقديس الماضي بشكل مطلق لهو أمر يسيء إلى الفكر الإنساني المتطور، بل ويسيء إلى إنسان اليوم الذي لم يعد مؤهلاً لأن يأتي بجديد، ولا أن يخدم واقعه المتغير، وكأنه يعزف على أوتار القديم نفس اللحن، الذي لم يعد مناسباً، بل ويعد لحناً شاذاً في عالم متغير.

والتقليد لا يقتصر على تقديس الماضي فقط، بل أيضاً على النقل عن الآخر (الغرب) أو تصور أن كل ما أنتجه الوعي الأوروبي عموماً لا بد وأن يكون صحيحاً بالضرورة. وهذا ما يعرف بمركزية الآخر: الآخر مبدع، الأنا

ناقل* . نحن لا نشك في أن حاضرننا الفكري المعاصر هو من جهة استمراراً لاتجاهاتنا الفكرية الماضية، ومن جهة أخرى انطلاقاً نحو آفاق المستقبل. لذلك لا نريد للماضي - إذا أردنا الإصلاح حقاً - أن يكون مخدراً يشل حركتنا ويحول بيننا وبين الابتكار والتجديد، بل لابد لنا اليوم من العمل على التفكير لحسابنا الخاص، دون الوقوف عند حد تقليد الغرب أو النقل عن الثقافة الغربية، وكأنها الأطار المرجعي الوحيد. لابد أن يكون وعينا هو الوعي المستفيد، الناقد، وليس الوعي الناقل، وأن ننظر إلى المذاهب الأوروبية على أنها مجرد نماذج فكرية نهتدي بها ونستفيد منها - بما يتفق مع ثوابتنا وهويتنا - وبهذا المعنى تكون المعرفة بالثقافة والحضارة الأوروبية وبغيرها من الحضارات عوامل مشجعة، ونماذج صادقة لوعي خاص وفي ظروف خاصة، لإبداع خاص، وليس على أنها الوعي الشامل أو الحضارة الإنسانية الشاملة.

- النقد ضد الدوجما Dogma **: *

إذا كان النقد يتفق وإعلاء سلطان العقل والحرية والتسامح، فإنه ضد التفكير القطعي الدوجماتيقي، ضد التعصب والتشبث بالرأي الأوحى، وادعاء القدرة على امتلاك الحقيقة. ثمة نماذج عديدة في تاريخ الفكر الإنساني تؤكد وجود التعصب، وغياب الحرية والنقد، والتمسك بالرأي حتى لو ظهر فساد.

- النقد ضد السلطة : ***

السلطة هي المصدر الذي لا يناقش، والخضوع للسلطة أسلوب مريح في حل المشكلات، ولكنه ينم عن العجز والافتقار إلى الروح الخلاقة. والسلطة في كل أنواعها تشترط الطاعة التي هي ضد النقد والعقل والاستتارة. المطيع لن يكون حراً بل مقهوراً. ومن هنا فإن العصور التي كانت فيها السلطة هي المرجع الأخير في شئون العلم والفكر كانت عصوراً متخلفة خلت من كل إبداع. ومن ثم فإن عصور النهضة والتقدم إنما هي تمرّد وثورة على كل أنواع السلطة، من أجل تمهيد الأرض للابتكار والتجديد.

إذا كان النقد ضد التقليد، والنقل والتعصب والسلطة، وأحادية الإدراك، حرفية الفهم، الجمود ورفض التغير، وكراهية التطور ولزوم الطاعة، وإيثار التصديق، والأخذ عن الآخر بوصفه السلطة أو الإطار المرجعي الوحيد... فما الحل؟؟؟.

لا سبيل إلى تجاوز مثل هذا الموقف إلا بتأكيد الوعي النقدي للأنا، هذا الوعي الذي يقوم بفعل التصفية الذاتية والنقد مع ميراثه السلبي، يكشف عن سلبياته وتناقضاته وأوهامه، يوقظه من سباته، يمارس نفس الفاعلية حين يضع ميراث الآخر أو أقوال الغير موضع النقاش، فيؤكد حضوره النقدي تجاهها، ولا يتلقاها التلقي السلبي، بل التلقي الفاعل الذي يحول عملية الاستقبال إلى إعادة للإنتاج وإسهام فيه. لابد أيضاً من تأكيد الطابع الإنساني لهذا الوعي، على أساس تحرير الهوية الثقافية من مخاطر النزعات العرقية التي تقوم على أوهام التعصب، والتي تقصر التفوق على جنس دون آخر، والرقى على ثقافة دون أخرى^(*). (مركزية وهيمنة الآخر - كما سبق أن أوضحنا).

هذا الطابع الذي يؤكد قيمة إبداع الإنسان من حيث هو إنسان بعيداً عن تمييز العرق أو الجنس أو الثروة أو اللون أو اللغة، ويؤسس لمكانة العقل بوصفه أعدل الأشياء قسمة بين البشر. وإذا كانت الحضارة جهداً إنسانياً مشتركاً تسهم فيه الأمم جميعها ويضيف لاحقاً إلى سابقها في سلم التقدم، فلا بد أن يكون وعينا هو الوعي المنفتح على الآخر، المحاور له حوار الأكفاء، مدركاً أن ثقته بنفسه، وليس التحقير من شأنه - هو الشرط الأول لإبداعه. وفي هذا ما يؤكد حضور الأنا تجاه الآخر، للآخر الذي لا نأخذ عنه أو منه تقليداً أو إتباعاً، بل نقداً وإبداعاً.

(*) يخلو للمؤرخين والعلماء أن يرددوا أن العلوم كلها قد تأسست في بلاد الغرب (اليونان) حيث وضع إقليدس أصول علم الهندسة، أرشميدس أصول علم الفيزياء، أبقراط أصول علم الطب، وهيرودوت أصول علم التاريخ. ويؤكد الغرب أن العلوم المختلفة كانت كلها فنوناً لا علوماً عند العرب والمصريين، أي أنهم كانوا يعتمدون فيها على الخبرة والممارسة الشخصية أكثر من اعتمادهم على النظريات العامة... والحق أننا يجب أن ننظر إلى هذه الأحكام كلها نظرة دقيقة نافذة، فالفكر العربي كان له أبعاد الأثر - سواء في المجال العلمي الخالص أو في المجال الفلسفي - على الفكر الغربي، وإزاداد هذا الأثر مع انتشار العلوم عند العرب^(٦).

إن النهضة والحضارة وإرادة التغيير .. لا تتحقق إلا بالإضافة والثقة بالنفس، وهذا بدوره لا يتحقق إلا في مناخ أمن، وفي جو من التسامح والحرية... الحرية على مستوى الفكر، على مستوى العمل أو التنفيذ. فالحرية - أو التحرر - هي إحدى الوسائل التي نقودنا إلى تفكير نقدي أو قل إنها الجسر الضروري الذي نعبر به من النقد إلى الإبداع. ثمة علاقة وثيقة بين ترقى الإنسان، وبين شعوره بالحرية فيما يرى هيجل.

ويؤكد أستاذنا د / زكي نجيب محمود في معرض حديثه عن الحرية^(٧) أن الحرية لا تكون إلا من قيد : قيد الجهل والخرافة، قيد النص المنقول. والتفكير النقدي هو التفكير الحر المعقول. الحر من قيود الآراء المسبقة، والمعقول في خطة سيره نحو هدف مقصود. هذا التفكير القائم على الحوار العقلي المستتير من أوضح العلامات التي تشير إلى قيام نهضة فكرية. الحرية هي "الأمانة التي حملها الإنسان".

"إننا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان، إنه كان ظلوماً جهولاً".^(٨)

والأمانة التي حملها الإنسان هي الإرادة الحرة، التي تميزه عن سائر أجزاء الكون، فهو قادر على اختيار الصواب من الخطأ، وعليه تقع مسؤولية الاختيار. الإنسان - على خلاف الطبيعية - هو الذي ينسج حياته بإرادته وتلك هي الأمانة التي عرضت عليه فحملها مسؤولاً، فالإرادة الحرة البناءة، التي نقول "لا"، هي إرادة التغيير، إرادة الخلق والإبداع. والإيمان بالحرية ثقة في المستقبل، وتناول بقدرة الذات على حل متناقضات حياتها، ومواجهة شتى عوائقها. الحرية تعني أن التغير حقيقي وأن المستقبل مفتوح، والإمكان قوة مشروعة، والإرادة الإنسانية قوة خلاقة وجدة مستمرة، لأن الإنسان لا يمكنه أن يبدع أو يخلق إلا في "الحرية" ومن خلالها. الأحرار وحدهم يمكنهم أن يبدعوا ويخلقوا الحضارة، أما العبيد فإنهم لا يتجاوزن اللحظة التي يعيشونها.

والشخصية الحرة المبدعة هي محور كل فكر أصيل، وبالتالي رفض أي ذاتية شخصية أو أيولوجية فكرية تغلق الباب على صاحبها وتجعله عبداً لها، فتفقد القدرة على التواصل مع الآخرين.

إن الإبداع لا يتحقق إلا في اللحظة التي تتمرد فيها الأنا الفاعلة على طرائقها المعتادة. وإذا كان التمرد لا يسوي قضية، إلا أنه يستطيع أن يلعب دوراً عظيماً في تحرير الإنسان. المذلة والخضوع والخوف والطاعة لهي أخطر عقبة في سبيل حرية الإنسان وخلقه وإيداعه.

الإبداع إذن وليد الحرية، ولا يمكن أن يحدث بدونها، ومن شأن الروح الإبداعية أن تخلق شيئاً جديداً مبتكراً، وشيئاً فريداً unique لم يقدر للعالم أن يشهده من قبل، والمهم في الإبداع أن يعمل كل فرد بوصفه هذا الشخص المعين لا أي شيء آخر. وكل إنسان لديه اختيارات في الحياة إذا جاز هذا الفصل : إما أن يذوب في المجموع أو أن يكون متفرداً متميزاً. من أجل هذا عليه أن يتجاوز النقد إلى الإبداع، وهذا يمكن تحقيقه بالحرية، والثقة بالنفس، الشعور بالاستقلال، التأكيد على أهمية الفروق بين الأفراد، وتشجيع مناخ آمن ومفتوح، وتدعيم الحوار... كل هذه عوامل مشجعة للإبداع.

- دور الإبداع في حل المشكلات :

الإبداع كمحور العملية التعليمية : هنا يمكن التركيز على ثقافة الإبداع التي تكمن في لغة الحوار وتكوين الجديد، وتغيير الواقع بدلاً من ثقافة الذاكرة التي تعتمد على أسلوب الحفظ والتلقين والحفاظ على الوضع القائم دون تغييره.

الإبداع كمحور للتربية : التربية لا تؤسس على الطاعة العمياء والتقليد دون وعي، بل على أسلوب الحوار، الحب، والتعاطف المتبادل بين المعلم والطالب. التربية الأولى تخنق الإبداع لأنها تعتمد على كبت الرأي الحر والطاعة العمياء، أما الثانية تحقق الإبداع أو تساعد على تنميته لأنها تتعد عن الأساليب النمطية التي تجعل البشر على نمط واحد stereotype.

الإبداع كمحور للتغيير، حل المشكلات الخاصة بالهوية والثقافة : وذلك

عن طريق اختيار الأفضل، وما يتناسب مع كل ثقافة، وليس عن طريق هيمنة أو سيطرة ثقافة بعينها على الثقافات الأخرى. ذلك أنه لا يمكن أن تصف دواءً واحداً لكل الأمراض، كما إنه لا يجوز أن يكون هناك طبيباً واحداً يشخص لكل المرضى دواءً بعينه يشفى عليلهم، وهكذا لكل أمة فكر خاص بها وثقافة وثوابت خاصة بها، وستطيع أن تأخذ من الآخر - تتفتح على الآخر - في حدود هذه الثقافة، وبالتالي لا يمكن لأحد ادعاء الحقيقة المطلقة أو العلم الأوحد أو الرؤية الصائبة... فكل هذا يتنافى مع روح النقد والحرية والإبداع.

* تقدم العلم - في العالم المعاصر - إلى أين؟؟ (٨)

يرجع الفضل في كل تقدم حضاري إلى العلم، فالعلم وحده هو القادر على تغيير البيئة والمجتمع. ولا يستطيع السياسيون والتربويون والاقتصاديون أن يقدموا لنا أفكارهم إلا بالاستناد إلى العلم.

وقد صور المفكرون عصرنا هذا بأنه عصر العلم والتكنولوجيا، وأيضاً عصر القلق والحروب. فقد تقدمت العلوم وما يتبعها من تكنولوجيا تقدماً عظيماً، فكيف يمكن تفسير هذا القلق مع هذا التقدم العلمي؟! وهل يستطيع العلم وحده أن يصلح الطبيعة الأخلاقية للأفراد؟!

إن العلماء ليسوا وحدهم الأمناء على الحكمة والأخلاق. فالعلم شيء والأخلاق شيء آخر. العلم في ذاته ليس خيراً أو شراً، إنه فقط يعطي للإنسان الوسائل الفعالة ليفعل ما يشاء. ولكن كل الانتصارات العلمية أصبحت لا تكفي الإنسان الذي يبحث عن ذاته وعن معنى الحياة. فالتقدم الباهر الذي وصل إليه الإنسان لم يحقق له التوازن النفسي الذي يبغيه. إننا نعتقد أن اهتمام الحضارة الغربية بالجوانب المادية من الإنسان أكثر من الجوانب الروحية فيه هو السبب في هذا القلق، والتوازن. وربما كانت مهمة العلم - في بعض الأحيان - القضاء على الإنسان لا المحافظة عليه.

حقاً لقد أكد العلماء أن العلم كفيلاً بتحقيق السعادة والرخاء والثروة للإنسان، ولكن هذا الرأي ليس صحيحاً، فلقد أدت بعض العلوم إلى صراعات بين الشعوب والدول، وبين أفراد المجتمع بعضهم ببعض، فلقد أدت نظرية التطور عند "دارون" إلى تفرقة عنصرية بغیضة بين الشعوب، كما أدى علم التحليل النفسي عند فرويد إلى اهتزاز حقيقة الإنسان، باعتباره كائنًا يخضع للغزيرة واللاشعور دون إمكان السيطرة عليها، فيقع فريسة للأوهام والأمراض النفسية التي هي أخطر أمراض العصر.

فالعلم - بهذا المعنى - قد يحقق للإنسان القوة والقدرة والسيطرة على الطبيعة، ولكنه لا يستطيع أن يحقق للإنسانية السعادة. نحن لا نستطيع أن ننكر قيمة العلم وأثره في حياة الشعوب، ولكنه وحده لا يستطيع تحقيق السعادة للإنسان، بل لابد من تصافر القيم الدينية والأخلاقية حتى يمكنها حل المشاكل التي يعجز العلم عن حلها.

إن التقدم لا يمكن أن يكون نتيجة لعامل واحد، أياً كان هذا العامل، إنما هو نتيجة لعدة عوامل متكاملة؛ مادي ومعنوي، اقتصادي، سياسي، أخلاقي. ويقول ألبرت شفيتر في كتابه : فلسفة الحضارة : أن مقومات الحضارة في جوهرها أخلاقية، أما غير هذا من مقومات تاريخية ومادية وجمالية فما هي إلا مجرد ظروف مصاحبة للحضارة. وهو يرى أن انهيار الحضارة الغربية قد حدث بسبب ترك المجتمع للأخلاق أو بسبب تأخر التطور الثقافي عن التطور المادي والعلمي الذي يبهر الكثيرين من المعاصرين.

والحق أن سبب انهيار الحضارة الغربية ليس هو التقدم عن طريق العلم والتكنولوجيا، بل هو إساءة استخدام العلم في الحروب وويلاتها، وفي استعمار الأقوى للضعيف. فبرغم التقدم العلمي ومخترعات التكنولوجيا واختراق الفضاء، اهتزت القيم وتضاعلت، وأصبح كل ما يهم الإنسان هو المادة، واختفت القيم الإنسانية وخلت الحضارة المعاصرة من الدوافع الروحية والبواعث الأخلاقية. ويرى بعض العلماء إن الإنسان قد أساء في استخدامه للعلم فبدلاً من أن يسيطر

على الطبيعة - كما كان يقول بيكون وديكارت - أصبح يفسد هذه الطبيعة. فالبيئة الطبيعية قد تلوثت، والطبيعة الإنسانية قد أفسدتها الحضارة الصناعية الحديثة*، أصبح الإنسان يعاني من أمراض العصر التي لم يستطع العلم برغم تقدمه معالجتها والقضاء عليها، وأصبح يخشى تطبيق العلم في أغراض أخرى غير الرخاء والسلام، ويرفض بشدة أن يتحول العلم إلى سلاح رهيب يفتك بالإنسانية ويدمرها.

هكذا التفتت الحضارة الأوروبية من العلم منهجاً لها، وأسقطت من حسابها الاعتبارات الإنسانية، وأصبحت المبادئ الأخلاقية كالمومياء المحنطة في اللقائف، وعجز العلم وحده عن إصلاح الطبايع الأخلاقية، ولم تعد الانتصارات العلمية وحدها تكفي الإنسان الذي يبحث عن ذاته في هذا العالم. ولكن سيظل الإنسان - رغم هذا - يسعى إلى التقدم العلمي والرفي، ولن يتخلى عن المكاسب العلمية مهما كانت الأخطار التي تحيط به. إنها لمسئولية العالم الغربي اليوم أن يحقق المعادلة الصعبة بين العلم والأخلاق، كما أننا نعتقد أن العالم العربي المعاصر يجب أن يؤدي دوره في هذا التقدم. فالعالم إنسان قبل أن يكون عالماً، لذلك لا بد أن يشعر للعالم بمسئوليته تجاه البشرية. والعلم لا يتعارض مع النزعة الإنسانية والاعتبارات الأخلاقية. أكد هذا أينشتاين، رسل، ومن قبل بيكون، كما أكدت هذا النزعة العملية في حياة الإنسان، الفلسفة البراجماتية في أمريكا، بل إن العلم قد تحولت تطبيقات قوانينه - في وقتنا هذا - إلى تكنولوجيا العصر. وإذا كان البحث العلمي أساس التقدم الحضاري، فإن التكنولوجيا هي السبيل إلى تحويل نتائج البحث العلمي إلى مواد وأجهزة ومعدات لاستخدامها في الحياة العملية.

وإذا وقع في ظن البعض أن المعرفة العلمية قد حلت محل المعرفة الخلقية، وأن العلم قد أصبح كمثل بحل كل مشكلات السلوك، فإن التجربة قد أثبتت للناس أن العلم نفسه لا يمكن أن يقوم إلا على أسس أخلاقية. ليس العلم وحده هو الذي يصنع الإنسان، بل الإنسان هو الذي يصنع العلم وذلك بفكره

وأخلاقه وقيمه وإبداعاته. وما أخرج علمنا المعاصر إلى العنصر الأخلاقي الإنساني الذي افتقده من قبل. ولا نقصد هنا الأخلاق المتعالية، بل الأخلاق التي تكون مهمتها تناول الواقع بالتغيير لتسير به نحو قيم يخلقها الإنسان لنفسه وبوحي من ظروفه، كما تحقق له حريته.

لابد أن يكون "النمو" أو "التحسن" أو "إعادة البناء" هو الغاية التي ننشدها من العلم والأخلاق معاً، والفلسفة التي تأخذ بهذه المعايير تدين في نفس الوقت للنفال، ونفسح مجالاً للأمل، وآفاقاً جديدة للتطور، فهذا العالم ليس أفضل العوالم الممكنة، بل إنه بحاجة دائمة إلى العمل على إصلاحه، ومواجهة ما فيه من نقص. والإنسان ليس فرداً منعزلاً، بل إنه جزء من بيئته الحضارية التي يتأثر بها، والحضارة الحية هي التي لا تتوقف عن النمو، لأنه حين نعد إلى العزلة والجمود نفقد ما فيها من حيوية.

أفرز العلم - في كل مجالاته - مزيداً من التقدم والإزدهار في كافة الميادين، ومكن العلم الإنسان من السيطرة على ظواهر الطبيعة في الأرض التي يعيش عليها ويسر له غزو الفضاء ليفرض عليه سلطانه، وبدا بهذا كله تاج الخليفة، بدا ما رداً جباراً، قهر الطبيعة وبسط عليها سلطانه.

ولكن من عجب حقاً أن هذا المارد الجبار قد تقضى على حياته لسعة من بعوضة أو جرعة ماء ملوث أو غير ذلك من أسباب قد تبدو تافهة، يعجز عن مقاومتها ليعدو ضعيفاً هزياً يثير العطف والشفقة.

وقد عبر القرآن عن هذا أصدق تعبير حين قال : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) (١).

وفي آية أخرى : (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وُخْلُقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا)^(٥).

إنه التناقض الذي يمكن في داخل الإنسان والتأرجح بين القوة والضعف، بين الكمال والنقص. هذا التناقض يجعلنا نقر أن العلم لا يمكن أن يحل محل الأخلاق أو الدين، وأن الذين ينقضون الدين باسم العلم يخطئون في تقديرهم للعلم.

سيظل الإنسان بحاجة إلى العلم إيماناً منه بالتطور والجدة والخلق والإبداع، وبحاجة أيضاً إلى القيم الروحية من أجل تحقيق التوازن النفسي والسلام مع العالم.

الهوامش

(١) John, C. S. Kin : The Art of creative critical thinking P. ٢٢L٢٣. (١

University Press America. ١٩٤٤©,

John Dewy : How to think. London. D.C

Health and company. ١٩٣٣

د/ حسين على حسن : فن التفكير ص ٢٨، وما بعدها.

د/ سامية عبد الرحمن : القيم الأخلاقية في الفكر الإسلامي والفكر الغربي المعاصر.

ط ١، ١٩٩٢، ص ١١٢ : ١١٤.

* راجع هنا : / موقف سبينوزا من الخرافة، ومن الخوارق والمعجزات [إذا غاب العقل ظهرت الخرافة، إذا سادت الخرافة ضاع العقل] من كتابنا : النقد في الفلسفة الحديثة. دار الثقافة ٢٠٠٠، ص ٨٢ : ٨٣.

(٢) نفس المرجع ص ٧ : ١٥.

(٣) انظر : د/ صفاء الأعصر : الإبداع في حل المشكلات. دار قباء للطباعة والنشر ص ٣٨، وما بعدها.

(٤) راجع هنا : د / توفيق الطويل. أسس الفلسفة ص ٢٠١ : ٢١١.

* رفض سبينوزا للمعرفة العامة، قوله بالمعرفة العقلية. من كتابنا : النقد في الفلسفة الحديثة ص ٥٩ : ٨٠.

** نفس المرجع : ص ٩ : ٤٢.

(٥) راجع هنا * د/ حسن حنفي : مقدمة في علم الاستغراب.

** د / فؤاد زكريا : التفكير العلمي ص ٨٧، وما بعدها.

اتسم عصر النهضة الأوروبية بالثورة والتمرد على القديم ممثلاً في سلطة أرسطو، وسلطة الكنيسة في آن واحد.. أنظر : النقد في عصر النهضة في كتابنا : النقد في الفلسفة الحديثة ص ١٣ : ٢٥.

*** د/ زكريا إبراهيم : مشكلة الفلسفة.

**** د/ توفيق الطويل : الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية. ص ٣٧ وما بعدها.

***** كتابنا : الحرية في فلسفة رسل : نقد رسل للسلطة.

الدوجماطيقية هي توهم إمتلاك الحقيقة المطلقة، وهذا الوهم يتمتع معه التفكير النقدي الإبداعي.

انظر د / مراد وهبه : "ملاك الحقيقة المطلقة". الدوجماطيقية. ص ١٨٥ : ١٩٣.

٦) انظر أثر العرب وعلومهم على الحضارة الغربية، وسبقهم في الريادة والكشف من كتاب :

د/ نازلي إسماعيل : الإنسان والحضارة ص ٣٦٩ : ٣٨٦.

د/ توفيق الطويل : الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ص ٣٩ : ٤٥.

د/ توفيق الطويل : قضايا من رحاب الفلسفة والعلم ص ٧.

العلم عند العرب في عصر الإسلام ص ٢٣٩ : ٣٤٨.

٧) انظر : د/ زكي نجيب محمود : عن الحرية أتحدث.

د/ زكي نجيب محمود : من زاوية فلسفية ص ١٢٨.

٨) راجع هنا : فلسفة الحضارة. ترجمة د/ عبد الرحمن بدوي. القاهرة. ١٩٦٣

. ص ٦٤، ٤٠١.

- توفيق الطويل : الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية. ص ٧٠.

- كتابنا : القيم الأخلاقية في الفكر الإسلامي والفكر الغربي المعاصر. ص ١٣،

١١٧، ١١٨.

- انظر رأي روسو في العودة إلى الطبيعة، أن العلوم والفنون قد أفسدت

الطبيعة الطيبة للإنسان من كتابنا : جان جاك روسو : دار الثقافة ٢٠٠١.